حديث عن العلامة

عبدالرحيم الحلوي

1 - توطئة تاريخية:

1 - 1 - اللغة (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)[1]، وهي كذلك: (القدرة المميزة للنوع البشري على التواصل عن طريق العلامات الصوتية)[2].

هذان تعريفان من بين مجموعة من تعاريف اللغة الكثيرة، وذكرهما دون غيرهما جاء لسببين:

أ - التمثيل لا الحصر.

ب - الدقة التي يتسمان بها، برغم اختلافهما في درجة الدقة. والتعريف الأول يعد من بين التعريفات الدقيقة إلى حد بعيد[3]. فهو يحتوي على الجوانب المميزة والأساس للغة:

أ - الطبيعة الصوتية للغة.

ب - وظيفتها الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر.

ج - لكل قوم لغتهم الخاصة، أو بتعبير محدث: لسانهم الخاص.

أما التعريف الثاني فيركز على نقطتين:

أ - اللغة سمة مميزة للكائن البشري.

ب - التواصل بين البشر يتم عن طريق علامات صوتية.

ويمكن أن نستنتج من التعريفين أعلاه أن: (ملكة التواصل عن طريق اللغة وامتلاك لغة «لسان» ذات بنية محددة، هما سمتان تميزان المجموعة البشرية)[5].

1 - 2 - غير أن التواصل في معناه العام لا يقتصر على اللغة كما هي مفهومة من التعريفين ، بل هناك وسائل أخرى متعددة تحقق ا لتواصل من خلال مساعدتها اللغة أو تعويضها. فبالإضافة إلى اللغة الطبيعية «لغة التخاطب اليومي» أصبحنا نتحدث عن لغة حركية «أو الإيماء» «Gestualité» وعن لغات العلوم «لغة الرياضيات، لغة الفيزياء...» وعن لغة المراسلات..

ولا شك أن هذه اللغات يختلف بعضها عن بعض بكثير من الأشياء. تختلف مثلاً في طريقة عرض العلامات والإشارات والموضوع الذي تشير إليه، والغايات التي ترومها، وكمية العلامات ونوعياتها التي تستعملها لأجل إيصال المعلومات..

وإذا كانت تختلف من هذه النواحي، فهي تتصف من نواحٍ أخرى بخصائص مشتركة. ولهذا السبب أطلق عليها جميعها اسم «اللغة» هذا معناه أن هذه الخصائص تؤلف

بمجموعها جوهر اللغة. وفيما يلي من الكلام ذكر لبعض هذه الخصائص:

أ - إن هذه «اللغات» تحتوي على نظام من العلامات والرموز، قيمة هذه العلامات والرموز تكمن في الاتفاق أو الاصطلاح «convention» المسبق بين مستعمليها.

ب - تنتظم أو تتعاقب هذه العلامات والرموز بطريقة مخصوصة، وذلك وفق قواعد جري الاصطلاح عليها قبلياً. إذا لا يمكن نظم العلامات والرموز كيفما اتفق.

ج - لابد لهذا النظام أو التعاقب من هدف يرومه.

د - لابد من وجود وسط مشترك من التفاهم بين المخاطَب والمخاطِب، بين الكاتب والقارئ، بين المرسل والمتلقي.. لأن انعدام ذلك معناه فشل العملية اللغوية، وتحول نظم العلامات والرموز إلى مجرد لُعبة عديمة الفائدة. فقيمة العلامات والرموز تقوم على وجود العلاقة بين المتواصلين.

هـ - إن الإنسان يستعمل اللغة لنقل الفكر. فالفكر يتحقق بواسطة اللغة.

وخلاصة القول: يتضح من خلال هذه الخصائص حقيقتان هامتان:

- أولاهما أن اللغة تتألف من علامات ورموز واضحة جري الاصطلاح عليها مسبقاً، وأنها تخضع لنظم وتعاقب مخصوصين تحكمهما قواعد معينة.

- ثانيهما أن اللغة تلعب دور الوسيط، تحقق التواصل وتحمل الفكر..

1 - 3 - أما محاولة التأريخ لبداية الاهتمام باللغة والعلامات، فيمكن النظر إليها من منظورين:

أ - من الناحية الاستعمالية، وهذه ترجع بنا إلى عهد قديم جداً أي (إلى وقت أخذت الجماعات البشرية في الكلام)[6].

ب - من الناحية التنظيرية، وهذه ترجع إلى وقت استوى فيه الكلام والكتابة نسبياً.

وبما أن تحديد تاريخ مضبوط لوجود الانسان على الأرض صعب جداً، وبالتالي يصعب تحديد وقت استعمال اللغة من أجل التواصل، سنركز اهتمامنا على النقطة الثانية لأنها لا تعاني من هذه الصعوبة بالحده نفسها.

1- 3 - 1. لقد شغل القدماء من الفلاسفة والمناطقة والرياضيين.. كل حسب اهتمامه باللغة في نشوئها وتعددها واختلافها، وبالعلامة والمعنى. فتاريخ الفلسفة مثلاً، يشهد على أن مفهوم العلامة قد ساعد في تنظيم مجموع التفكير حول الفكر والمعرفة لعدة قرون.. فالفكر كله علامة، والانسان عندما يفكر في شيء ما ترتسم في ذهنه فكرة هذا الشيء، وهذه الفكرة تمثل الشيء الحقيقي. فالفكرة إذن علامة أي شيء يمثل شيئاً أخر[7]. وهذا يبرر أن الاهتمام باللغة والعلامة

طبيعي جداً خصوصاً وأن الانسان يعبر عن فهمه لنفسه وللعالم من حوله بالعلامة أي اللغة. يقول آلان إميل أوكست شارتيي (Alain, Emile-Auguste chartier)(*): لا تسألوا كيف يكوّن الإنسان أفكاره الأولى ، فهو يتلقاها مع العلامات وصحوة فكره الأولى - دون شك - تكون من أجل فهم علامة ما « . . » كل إنسان عرف العلامة قبل أن يعرف الأشياء[8]. بل أكثر من ذلك إنه يستعمل العلامات قبل فهمها.

1- 3 - 2. والسفسطائيون الإغريق هم أول من وعى الأهمية الكبيرة للغة . فالفيلسوف الكبير سقراط بحث في «التعريفات» «Définitions» أي المعنى الدائم لكلماتنا وجملنا. وأفلاطون «427-347 ق.م» في محاورته المسماة «كراتيلوس» «cratyllus» يتساءل عن دقة الكلمة ويناقش فيها مسألة العلاقة بين «الأشياء» و«الكلمات» التي تسميها: أهي علاقة طبيعية وضرورية أم إنها لا تعدو أن تكون ثمرة اصطلاح الجماعات؟[9] وهو يرى رأي "كراتيلوس" ويعارض محاوره «هيرموجين» «hermogéne» يقول ما معناه: يجب أن نسمي بالكيفية الأنسب إلى طبيعة الأشياء، يجب أن نسمي الأشياء، أو أن تكون مسماة بالأداة المطلوبة لا بالكيفية التي نريدها نحن[10].

ويثبت أفلاطون كذلك في «التييتت» (Théetete) وفي «السفسطائي» (Le sophiste) أن البنية المعقدة للجملة المكونة من إسناد كلمة إلى فعل، هي وحدها التي تسمح بالكذب، الذي هو القدرة على قول الكذب، أي قول ما ليس موجود.

كذلك أثبت أرسطو (384 - 322 ق.م) في مقاله: «حول التأويل (De l'interprétation) أن كل قوانين المنطق تنبني على خصائص القضية: هذه الأخيرة تثبت أو تنفي (شيئاً ما بخصوص شيء آخر)[11]، والإثبات والنفي خاصيتان من خاصيات الجملة بتعبير اللغويين. وأرسطو لا يقف عند هذا الحد، بل نراه يذهب غير مذهب أفلاطون فيما يتعلق بقضية علاقة الأشياء بالكلمات، «فالأصوات التي تنطقها هي رموز عن «حالات النفس» «Pathêmata-Etats d'âme» والكلمات المكتوبة رموز عن الكلمات المنطوقة . وكما أن الكتابة ليست واحدة عند كل البشر، كذلك الكلمات المنطوقة ليست واحدة عندهم، ومع ذلك، (فحالات النفس التي تعبر عنها هذه العلامات هي واحدة عندهم [..] فالاسم هو صوت (Son, Vocal نطقي (صوتي) يملك دلالة اتفاقية ..)[12].

ومع الرواقيين عرف التفكير في العلامة أوجه ، فقد ميزوا الموضوع المادي «Objet matériel» القابل للتمثيل من الرمز المادي «Symbole matéeiel»: «الدال» الذي يجعل التمثيل حاصلاً، والدلالة Signification التي اعتبروها كتجريد تصوري لمجموعة محدودة من الموضوعات[13]. ورأوا أن النحو يجب أن يطابق المنطق (وينبغي أن تطابق الأجزاء أو الأقسام النحوية أقسام المنطق أو مقولاته)، مثلاً: تطابق علامة الجمع وفكرة العدد[14].

1- 3 - 3. أما المناطقة ، من خلال انطلاقهم من بعض القضايا لأجل تقديم حجج منطقية تكون دليلاً على ميكانيزم منسجم وصلب كالقياس، فكانوا يعتبرون «الحدود Termes» كسلسلة من العلامات المفصلة «Articulés»، هذه الحدود أو العلامات دورها إقامة علاقة بين الكلمة والشيء.

1- 3 - 4. والاهتمام باللغة والعلامة لم يكن وقفاً على هذه المراحل التاريخية ولا على هذه العلوم التي ذكرنا ، بل نجده في هموم فلاسفة العصور الوسطى، وفي المناقشات التي دارت حول النزعة الاسمية(*) «Nominalisme» في أوروبا .

أما في المشرق فقد نشأت الدراسات اللغوية عند العرب خدمة للقرآن الكريم، حيث ظهرت محاولة أبي الأسود الدؤلي «على القول الراجح»، تلاها ظهور نحاة البصرة والكوفة..

وفي عصر النهضة تعدى اهتمام الأوروبيين باللغة دراسة اللغتين اليونانية والرومانية إلى دراسة بعض اللغات السامية كالسريانية والعبرية والعربية..

وكأن فلاسفة القرنيين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ممن أولوا أهمية كبرى لنظرية العلامة. فهذا «ليبنتز "G.W "Leibnitz 1646-1716 مثلاً يطرح مبادC عامة لتصور العلامة ، حيث يعتبر اللغة مرآة تعكس الفكر البشري ، وأن تحليلاً دقيقاً لدلالة الكلمات يمكن أن يجعلنا نتعرف أكثر عمليات الإدراك(15). ولا يجب أن ننسى كذلك التخمينات

والمناقشات التي دارت حول أصل اللغة عند «هردر» «J. G Herder» والمثالية الألمانية العظمى. خصوصاً أبحاث «هامبولت W. V. Hombolt» من خلال مقاله: « حول تنوع بنية الألسان البشرية وتأثيرها في التطور الروحي للجنس البشري De la diversité de structure des langues humaines et de » son influence sur le développement spirituel de l'espece humaine ولا يجب أن ننسى كذلك أن القرن الثامن عشر الميلادي عرف ميلاد النقد المقارن للنصوص القديمة على يد «ف. أ. وولف» (F.A. Waff) واكتشاف «سير وليام جونز (Sir. W. Jones) للغة السنسكريتية، وما كان لهما من تأثير.

أما في القرن التاسع عشر الميلادي فقد انصب الاهتمام على أصل وتطور اللغة كشكل تعبيري عن العقل البشري المبدع . وما كان للغة أن تعيش في هذه الفترة في معزل عن النزعة التطورية والعلوم الطبيعية . فهذه الفترة بحق فترة التأريخ للظواهر المختلفة، ويمكن أن يقال الكثير عنها. ولا يشك أحد أنها وسابقاتها قد مهدت لعلم اللسانيات بالمعنى الحديث.

1 - 3 - 5. ومع القرن العشرين بدأت الدراسة العلمية للغة تظهر بعد أن تسم لعلماء اللغة التخلص من سيطرة النظرية التطورية. وخرجت محاضرات العالم السويسري فرديناند دي سوسير (Ferdinand De Saussure) إلى الوجود، على يد تلاميذه سنة 1916[17]. فكان الإلحاح على ضرورة الفصل بين

اللغة كنسق « Systéme »، وبين اللغة كتغير، ودراسة كل واحدة منهما تحتاج إلى منهاج خاص. ولقد فرضت تعاليم دي سوسير المتضمنة في هذه المحاضرات التصور البنيوي للغة على كثير من المدارس اللسانية الحديثة رغم اختلاف طريقة دراستها.

1 - 4 - اللغة، اللسان، العلامة:

للغة في تصور دي سوسير جانبان ، جانب فردي وجانب اجتماعي. ولا يمكن تصور هذا دون ذاك[18]. الجانب الاجتماعي يتمثل في اشتراك جماعة ما في نظام لغوي معين. والجانب الفردي يتمثل في الاستعمال والإنجاز الفعلي الذي يقوم به المتكلم بهذا اللسان. فاللغة في كل لحظة تكون مؤسسة آنية « Actuelle »، وفي الوقت نفسه نتاج الماضي. وقد يبدو للمرء أنه من السهل تمييز هذا النظام من تاريخه لأول وهلة، أي تمييز ما هو عليه الآن مما كان عليه سابقاً. بيد أنه يتضح أن العلاقة التي تربط بين هذين الشيئين ضيقة جداً حتى أنه يصعب تفريقهما[19].

واللسان هو الجزء الاجتماعي في اللغة، يوجد خارج الفرد وإرادته. هذا الفرد الذي وجد نفسه يوماً يتكلم هذا اللسان، فهو لا يستطيع تغييره وبالأحرى خلقه بمفرده، لأن اللسان نابع من اصطلاح واتفاق جماعيين سابقين.

واللسان كذلك متميز عن الكلام: الجز الفردي من اللغة المتغير[20] والخاضع لإرادة وعقل الفرد. عكس اللسان الذي

يخضع له الفرد ويستسلم. وفي الكلام علينا أن نميز بين أمرين:

أ - التأليفات «Combinaisons» التي بوساطتها يستعمل المتكلم سنن اللغة لأجل التعبير عن فكره الشخصي .

ب - الميكانيزم «النفسي - الجسمي Psychophysique» الذي يسمح له بإخراج هذه التأليفات. وإذا كان اللسان يبقى ثابتاً ومستمراً عن طريق الكتابة ، فالكلام يمحى بمجرد إنهاء عملية الكلام[21]. فإذا نحن ميزنا اللسان من الكلام فإنما نميز في حقيقة الأمر وفي الوقت نفسه:

أ - ما هو اجتماعي مما هو فردي.

ب - ما هو ضروري مما هو ثانوي[22].

وإذا كان اللسان - كما رأينا - مؤسسة اجتماعية ، فهو يتميز من خلال سمات عديدة من المؤسسات السياسية والقانونية.. إلخ. انطلاقاً من هذا الاختلاف أصبح من اللازم، لفهم طبيعة اللسان، إيجاد نظام جديد يختلف عن نظم المؤسسات الاجتماعية الأخرى. هذا النظام الجديد هو الذي تنبأ به دي سوسير في قوله:

(يمكن إذن أن نتصور علماً يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية «..» هذا العلم سيكون هو السيميولوجيا. دوره أن يعيننا على معرفة ماهية العلامات والقوانين التي تحكمها)[23]. هذا العلم الجديد، سيغنينا عن البحث في أصل

اللسان لأن هذا الأخير ليس عبارة عن قائمة محدودة من الكلمات. كما سيجعل الدراسة النفسية لميكانيزم العلامة عند الفرد غير مجدية بالرغم من كونها تمثل منهاجاً سهلاً، ذلك لكونها لا تتعدى التنفيذ الفردي إلى العلامة التي هي اجتماعية بطبعها[24].

ودور العلامة التي ستدرسها السيميولوجيا ليس هو أن تقرن شيئاً باسم، ولكن أن تقرن مفهوماً بصورة سمعية/ Concept Image acoustique، أو بتعبير ملائم أكثر: الدال بالمدلول « Signifiant/Signifié ».

1 - 5 - هذه باختصار شديد الخطوط العريضة لاهتمام دي سوسير باللغة وتفريعاتها والعلامة وتفريعاتها . وقد بقيت أفكار هذا العالم من خلال محاضراته مناراً تهتدي به المدارس اللسانية من بعده، إلى ظهور منهاج جديد في تناول القضايا اللغوية ، هو مناهج النحو التوليدي التحويلي مع الأمريكي نعام تشومسكي « N. Chomsky » وتلاميذه. حيث تركز الاهتمام أكثر على القدرة اللغوية (Compétence linguistique التي يملكها الفرد. ومفهوم القدرة هذا يتضمن المتكلم / الفرد الذي ظل غائباً في التحليل البنيوي. وأعطيت في هذا المنهاج الأهمية لحدس Intuition المستمع في تقرير مقبولية الجمل أو عدم مقبوليتها. بالإضافة إلى الاهتمام بالإنجاز Perfomance والتحقيق اللغويين، ومحاولة تفسير عملية الاكتساب اللغوي لدى الانسان والبحث المستمر عن قواعد كونية تحكم اللغات..

1 - 6 - خلاصة:

هكذا إذن، وجد الإنسان نفسه «مستعملاً للغة أو منظراً لها»، أمام عالم معقد ، مضطراً لاستعمال نظام من العلامات لتمثيله وفهم حقيقة الأشياء التي تحيط به، وترسيخ الموضوعات والوقائع في ذهنه. ينعكس في هذا التمثيل فعل تمثيل الموضوع في نفسه في الوقت الذي يمثل فيه الموضوع:

د (26)(*)

س

ونقول مع ريكاناتي « F. Récanati » تعليقاً على هذا الرسم: (« . . » ينعكس فعل التمثيل على نفسه في الوقت الذي يمثل موضوعه، وهذه، في أوسع عمومياتها، هي بنية العلامة بالمفهوم الكلاسيكي، أي بنية الفكر «لأن الفكر تمثيل، والتمثيل Représentation مرادف للعلامة»: ففي التمثيل يمتزج الفعل التمثيلي «الذي ينعكس على نفسه» بالموضوع الممثل بكيفية مبهمة)[27].

إن تطور الأفكار عبر العصور «من القديم إلى القرون الوسطى من ديكارت إلى كانط وهوسرل» كان يحوم حول مفهوم العلامة بالمعنى الواسع للمصطلح، أي في مظهره السيميوطيقي كعلامة، ومظهره الدلالي كتمثيل لفكرة أو فكر « Idée / Pensée ».

ولا تؤول جل هذه التصورات المتنوعة للعلامة إلى البحث عن القوانين الداخلية التي تحكمها وحسب، بل وإلى تأثير هذه العلامة في السلوك البشري أيضاً .

الهوامش

*) فيلسوف وكاتب فرنسي. 1868-1951.

*) تيار فلسفي يعتبر المفاهيم الكلية مجرد أسماء للأشياء الجزئية وألا وجود إلا لهذه الأشياء الجزئية .

*) هذا الرسم في حقيقة الأمر يحوي ضمنياً رسماً آخر: س د . فحسب مؤلفي منطق بورورويال لابد من شيئين اثنين للعلامة: شيء ممثِّل وشيء ممثَّل. فالشيء الممثِّل علامة حين يدخل في علاقة تمثيل مع الشيء المدلول.

1) ابن جني: الخصائص، دار الكتاب العربي، بيروت، الجزء: 1، ص : 33.

2) Dubois (J) et Autres : Dictionnaire de linguistique Larousse, 1973. p: 274. Mot : Langage.

3) د. حجازي: علم اللغة العربية: مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية . وكالة المطبوعات الكويت. 1973، ص: 9.

4) نفسه، ص: 9.

5) Sapir (E): Linguistique. Trad : J. - E Boltanski et N. - S. Susbelles. Minuit, 1968. p: 29.

6) د. السعران: علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي. دار النهضة العربية، بيروت، ص: 317.

7) Récanati (F): La transparence et l'énonciation : Pour introduire à la pragmatique. Seuil, 1979. P/6.

8) Petitgirard (p): Philosophie du langage : Textes de Platon à M. Heidegger. Delagrave, 1976 p : 18.

9) السعران، ص: 320.

10) Petitgirard (1976) : p : 83.

11) Ricoeur (p): Langage (Philosophie). In Encyclopedia Universalis. Françe, 1980. Vol: p 771 .

12) Petitgerard, p, 83.

13) Brekle, Herbery E.: Samantique. Traduit et adapté par Pierre cadiet et yron Cirrard. Armand. Colin. 1974. p 21.

14) د. السعران، ص 319.

15) مقال:

In. Ency. Univer. V 10, p: 882.

in Ency, Univer. V 14, p 860.
16) Ricoeur. Eny. Uni. V. 9, p 771 .

17) De Saussure, Ferdinand : Cours de linguistique.
Généale, Pul: C. Bally et A. Sechehaye, et Coll. A. "Riedlinger". (Ed. Critique).
Payot (1981)
18) De saussure, p 24.

19) نفسه، ص: 24.
20) نفسه، ص: 31.
21) نفسه، ص: 32.
22) نفسه، ص: 30.
23) نفسه، ص: 33.
24) نفسه، ص: 34.
25) نفسه، ص: 98.
26) Recanati. 1979, p : 31.
27) المرجع نفسه، ص: 23.